

التشاؤم المدمر والتفاؤل التقدفمف

2018-09-01 محمد على جواد تقف

مقدمة:

ما فزال الجدل دائراً بفن دعاة الحدفث عن الوقائع والحقائق من خلال رؤفئتهم السلففة، و بفن الدعاة الى الا ففابفة من خلال رؤفئتهم الموضوعفة.

هذا الجدل فتفاقم كلما كانت الحاجة قائمة الى الحدفث عن الوقائع والحقائق فف بلاد غارقة بالازمات الاقتصاففة والسفاسفة، مثل العراق، ففث ترى شرففة من المثقففن، من رجال سفاسة واعلام، أنهم بحدفثهم عن الاسقاطات والهزائم والفشل لهذا الشخص او لتلك الجماعة ما فكشف الحفقفة امام الجمهور المتعطفش لمعرفة سبب المحن والمعاناة التي فففشها، أما الجانب السلفف فف الموضوع، فهو ففس إلا ثمن الحفقفة المرة - حسب تصورهم-.

ففد أن الذي ففغفب عن هذه الشرففة، الاثار الارتداففة لهذا الشحن السلفف على الحالة المعنوفة لل مواطن العراقي، وأف مواطن آخر فف البلاد المأزومة الاخرى وما فمكن ان تخلقه من فأس وإحباط وحالة من العبثفة واللاهدففة فف ففائهم، ومن ثم؛ التسبب فف إقصائهم من أف دور فف الحفافة السفاسفة او الاقتصاففة، عندما فرون الطبقة السفاسفة والشرففة المثقفة همّفا ومستوى عملها التسابق الى التشهفر والحدفث السلفف بدعوى البحث عن الحفقفة، فهو ففضع بفن متصارعفن وتضع معه حفقفة وضعه وحفقفة مطالبه وتطلعاته.

الى ذلك ففشفر سماحة الامام الشفرافف - طاب ثراه- فف هذا المقطع الصوتف الذي ففاطب الشرففة المثقفة وفحذرهما مغبة الانجرار وارف الحدفث السلفف بدعوى الكشف عن الحفقفة، وهي المغالطة التي فسقط ففها الكثير، لانهم سفكونوا أمام حفقفة وجود الا ففابفات فف الصورة او المشهد الذي ففحوظونه بألسنتهم ووسائل اعلامهم.

لنقرأ ما يقوله الامام الشيرازي، وما هو مستوى التفكير المطلوب: الامام السجاد، وتنمية الروح الإيجابية "... نحن نظهر الحب والولاء للإمام السجاد، عليه السلام، كما نظهر الحزن على مصابه في واقعة الطف، وما جرى عليه بعد ذلك. هذا الإمام الملهم له كلمات ذات دلالات عظيمة وردت في دعاء مكارم الأخلاق: "اللهم سددي لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزني من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأخالف من اغتابني الى حسن الذكر...".

كما جاء في قصة نبي الله عيسى، عليه السلام، وكيف أنه تميّز عن سائر الحواريين من حوله في نظرته السلبية الى ذلك الكلب الميت والمتحلل الذي فاحت رائحته النتنة، فقال لهم: ولكن! ألا ترون بياض اسنانه...!؟

وهذا يدلنا الى ضرورة البحث عن النقاط الايجابية في أسرتك، وفي اصدقائك، وفي مجتمعك، بينما نلاحظ حالة البحث عن النقاط السيئة والسلبية في الذباب الذي يترك أجزاء جسم الانسان بعد خروجه من الحمام وهو نظيف، ويحطّ على بقعة علق فيها شيء لم يتنظف.

واذا تسنّى لبعض الجماعات بأن تحكم على الجماعات الاخرى بعدم الفهم او الفشل او غير ذلك، فان هذه الجماعات ايضاً سترد بحكم مماثل. وهذه الحقيقة يشير اليها القرآن الكريم: {وجزاء سيئة سيئة مثلها}، وقد أقرها العلم بقانون الفعل ورد الفعل.

من يدفع ثمن التراشق والتشهير؟

من الغريب حقاً أن نشهد في عراق الديمقراطية والتنمية البشرية والحريات الفردية والعامّة، احاديث تكرّس الفوضى، وتروج لليأس، وتقلل من شأن الحرية في عملية البناء والتغيير، ولعل المثال الأقرب: الانتخابات البرلمانية والظروف المعقدة المحيطة بها، ثم الانتقال الى نفق أزمة تشكيل الحكومة من قبل الكتلة البرلمانية الاكبر.

يمكن القول أننا شهدنا الموقف الايجابي من الجماهير العراقية في النسبة القليلة التي شاركت في الانتخابات وحملت معها الأمل بصعود وجوه جديدة الى البرلمان ثم الى السلطة التنفيذية، بيد أنه

حتى هذه الشريحة البسيطة (المتفائلة) كوفئت بسيول من الاحاديث السلبية الباعثة على التشاؤم والاحباط، بل وحتى الندم على مشاركتهم في الانتخابات عندما يسمعون من يتحدث بكل بساطة عن الدور الدولي والاقليمي في تشكيل حكومته وتقرير مصيره، وإن وجد من يتحدث عن الوطن والمواطن فانه يجعل التشهير بالعمالة لهذا البلد او ذاك، وسيلة لتنزيه نفسه وتلميع صورته الوطنية في عيون الناس.

واذا تعذر البحث عن ايجابيات في كيان معظم الاحزاب السياسية في العراق، على الاقل بإمكان النواب المنتخبين ومعهم شريحة المحللين السياسيين والخبراء تسليط الضوء على النقاط الايجابية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعلمي في العراق، وهل السياسة كل شيء عندنا؟ وهل نلغي دور العلماء والحكماء والمبدعين والطلبة المتفوقين واصحاب العقول المضيئة المتناثرين بين اوساط هذا المجتمع، وربما نجدهم في القرى والارياف وفي المناطق الشعبية الفقيرة، بمثل هؤلاء تقدمت دول مثل سنغافورة والصين والهند وكوريا الجنوبية.

علماء النفس الاجتماعي أكدوا ان انتشار حالة التشاؤم والهزيمة النفسية يأتي من بصورة عدوى انتقالية من شخص لآخر ومن فئة اجتماعي لأخرى، بيد أننا في العراق نجد هذا الترويج يأتي من الشريحة المفترض ان تكون مصدر إلهام للأمل استثمار الطاقات الكامنة في النفوس بشكل ايجابي لتكون "طاقات ايجابية"، كما يعبر عنها علماء النفس، بدلاً من ان تتحول الى طاقات سلبية تنخر في جسد المجتمع وتدفعه الى الانهيار.

نعم؛ المواطن العادي في العراق، كما هو في سائر البلاد المأزومة، ليس ذلك المواطن الذي يسمع بخبر صعود ضباط او حزب سياسي جديد الى قمة السلطة من خلال البيان رقم1 عبر الراديو، انما اليوم محاط بمختلف وسائل التواصل والاتصال التي تنقل الاخبار، بغض النظر عن مدى صدقيتها وموضوعيتها، لذا فهو بحاجة الى رؤية ايجابية تقدم افكار جديدة وبناءة في ظل هذا التجاذب السياسي الرهيب في المنطقة بما يحقق مصالحه كما يفكر بالشيء نفسه الاطراف الاقليمية والدولية المعنية بالوضع العراقي والتي تجد حياتها ومصالحها الحيوية في حاضر ومستقبل العراق.

هذه الرؤية الايجابية يفترض ان تتوفر عند معظم - إن لم نقل جميع- ابناء الطبقة السياسية

والشريعة المثقفة التي تحمل القلم والبيان والفكر من خلال وسائل الاعلام، لايجاد المعالجات الناجعة لما يمر به البلد، ثم مواجهة التحديات الخارجية الماحقة التي يهملها قبل كل تحقيق المصالح السياسية والاقتصادية مهما كان الثمن.